آفاق الثقافة والتراث

مجلة
فصلية
ثقافية
تراثية

تصدر عن دائرة البحث
العلمي والدراسات
بمركز جمعة الماجد
للثقافة والتراث

السنة السادسة ، العددان الثاني والعشرون والثالث والعشرون - جمادى الثانية ١٤١٩ هـ - أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٨م

مخطوط الكواكب الدرية وتخميساتها - ٨٥٧ هـ

MANUSCRIPT " AL KAWAKIB AL DURRYA WA TAKHMISATIHA" 857 (A-H)

منهج ابن ملكون[1]

في مخطوط

إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج[2]

الأستاذ: محمد الحيري

المعازيز - المغرب

ملخص البحث

دأب بعض النحاة القدامى على تقديم مصنفاتهم بخطبٍ يذكرون فيها موضوع الكتاب ، وسبب تأليفه ، والمقصود منه ، وحدوده ، والأسباب التي دعت إلى تأليفه ، وإلى الأبواب التي يحتويها ، فيتضح منهج المؤلف، ويتيسر على القارىء فهم ما قصده ، واستيعاب ما عقد عليه. ومن هؤلاء ابن ملكون الذي وطأ كتابه (إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج) بمقدمة ، أبرزَ من خلالها الخطوط العريضة لمنهجه المتبع في تأليف هذا الكتاب ، فأصاب فيما عقد عليه أحيانًا ، وأخطأ في أحايين أخرى. وحتى يكوِّن القارىء فكرة عما يزخر به هذا المخطوط النفيس - الذي لا يزال بكرًا لم تمسسه يد باحث بالدرس والتحليل - اخترت هذه الدراسة.

من خلال نظرة في مؤلفات النحو القديمة، نراها تصنّف إلى صنفين: صنفٍ حرص أصحابه على تقديم كتبهم بخطبٍ يستفتحونها بحمد الله والصلاة والسلام على النبي الكريم وعلى آله وأصحابه، ثم يذكرون موضوع الكتاب، وسبب تأليفه، والمقصود منه، وحدوده، والأسباب التي دعت إلى تأليفه، وتقسيمه إلى أبواب، وهل كان صاحبه مبدعًا أو متبعًا؛ فيتضح منهج المؤلف، ويتيسر على القارىء فهم ما قصده، واستيعاب ما عقد عليه، وصنف أغفل أصحابه مثل هذه الخطب، فاقتحموا الكتاب مباشرةً، مما يجعل القارىء يلج عوالم لا يدركها إلا بعد أن ينتهي من قراءة الكتاب.

وبما أن هذه الخطب تعكس رؤى أصحابها ومناهجهم، رأيت أن أقف عند خطبة مخطوطٍ نفيس لا يزال بكرًا لم تمسسه يد باحثٍ بالدرس والتحليل، ومؤلفه معروفٌ اسمه في كتب التراجم

والبرامج، ومغمورة ثقافته ومعرفته التي تلقفها نحاةٌ شُهد لهم بالرئاسة والإمامة في النحو، كأبي علي الشلوبين، وابن خروف، ومحمد بن طلحة، وغيرهم من العلماء الأساتيذ، الذين كانت تعجّ بهم حاضرة إشبيلية خلال القرن السادس الهجري.

منهج الكتاب

لقد حدّد ابن ملكون منهجه في تأليفه لكتاب (إيضاح المنهج) في المقدمة، حيث أشار إلى أنه سيعمل على الجمع بين كتابي ابن جني (المبهج) و(التنبيه)، اللذين كان وضعهما على حماسة أبي تمام حبيب بن أوس(٣)، مبرزًا أن هذه الحماسة قد أصبحت «مجفوة القدر» و«مطرحة الاستعمال»(٤) عند أبناء دهره «حين أخنت هذه الحماسة الأعلمية عليها باستمالة النفوس إليها»(٥). ولما «كان النظر في كتابي أبي الفتح لقارىء هذه الأعلمية باهضًا، وإلى السآمة والترك به ناهضًا»(٦)، أخذ على نفسه أن يوفر على قارئها النظر في هذين الكتابين بإعادة ترتيبهما وفق ترتيب الحماسة الأعلمية، وذلك بوضع «كل بيتٍ من تلك الأبيات في الحرف الموافق لقافيته من الأبواب(٧). ثم تعهد بتقديم «قول أبي الفتح فيما في البيت من إعرابٍ وغيره، مما تضمنه كتاب (التنبيه)، وما تضمنه كتاب (المبهج) من القول في اسم الشاعر»(٨)، منبهًا إلى أنه سيورد ما قاله أبو الفتح في اسم الشاعر، إن كان ذكره في (المبهج)، أو ما ظهر له، إن كان أغفله، مكتفيًا بما يتقدم من قول ابن جني أو قوله في اسم الشاعر عن إعادته، إذا تكرر دون الزيادة في ذلك على (التنبيه) على تقدمه(٩).

وقد جعل ابن ملكون علامة لكل واحدٍ من الكتابين، يقول: «فعلامة (المبهج) (هـ) كما ترى، وعلامة (التنبيه) (ت) كما ترى، فإذا قلت: قال في (هـ) فالمبهج أعني، وإذا قلت: قال في (ت) فإلى التنبيه أومىء»(١٠).

ومما نصّ عليه في مقدمة كتابه تعقيبه بعد كلام ابن جني بالتتميم، أو التبيين، أو الاعتراض عليه. وبعد إتيانه بذلك التعقيب يصرف القول إليه «جاعلاً لذلك أيضًا علامتين في طرف المقول، وهما (قلت) في أوله، و(رجع) في آخره»(١١).

وقد ختم مقدمته بالتنبيه على أنه سيفتتح كتابه بتلك المقدمة التي قدم بها ابن جني لكتابه (المبهج)، التي ضمنها القول في الأعلام، وما تنقسم إليه من النقل والارتجال، وما نقلت عنه من الأسماء والأصوات والأفعال، ثم يُتليها كلامه على الأسماء والأبيات في كتابي (التنبيه) و(المبهج)(١٢).

فهل التزم ابن ملكون بما نصّ عليه صراحةً في التوطئة التي وطأ بها كتابه، وأخبر القارىء بها في مستهل حديثه؟

إن المتتبع لأبواب كتاب (إيضاح المنهج) تستوقفه أمور عدّة، تساعد على رسم صورةٍ واضحة للمنهج الذي ارتضاه في توطئته، وعقد عليه العزم في مقدمته.

إن الناظر في كتاب ابن ملكون يرى مشابهة بيّنة بينه وبين حماسة الأعلم الشنتمري من حيث ترتيبه على أبوابٍ حددها الأعلم في ثلاثة عشر بابًا هي: الحماسة، والمراثي، والأدب، والنسيب، والمديح، والأضياف، والهجاء، والصفات، والسير والنعاس، والملح والطرف والمفاحشات، ومذمة النساء، والقصر، والكبر، إلا الباب الأخير فإن ابن ملكون قد أغفله لعدم إيراد ابن جني لبيتٍ من أبيات حماسياته في كتاب (المبهج)(١٣). قال الأعلم: «وهذا الباب الثالث عشر زائد على ما تضمنت حماسة أبي تمام القديمة، وحماسة أبي الفتوح الجرجاني وغيره، وهو ثابتٌ في حماسة عبد السلام، فأتيت به ليأتي هذا الكتاب على جميع ما تضمنت الحماسات المختلفة في الأبواب»(١٤).

أما قوافي الأبواب فقد رتبها على حروف المعجم

المتداولة في ترتيب المغرب والأندلس؛ «ليقرب بذلك تناوله، ويسهل على الطالب مرامه على حسب ما صنعه بعض أهل العصر»، كما قال الأعلم(١٥). وقد التفت إلى هذه الإشارة الصريحة من الأعلم الدكتور علي المفضل حمودان، فقال: إنّ «ترتيب الدواوين الشعرية على القوافي كان في هذا الزمن قد انتشر بالمشرق، وأخذ أيضًا ينتشر في الأندلس قبل فترة، يظن أن الأعلم لم يكن فيها بعد قد جمع نصوص الحماسة ورتبها، ومن ذلك ما يُذكر حيال ديوان يحيى بن الحكم الغزال (ت ٢٥٠هـ)، الذي جمعه الشاعر القرطبي حبيب بن أحمد الشطجيري (ت قريبًا من ٤٣٠هـ)، ورتبه على الحروف، وكذلك رتب ديوان ابن الحداء، وهو معاصر للأعلم (ت٤٨٠هـ) على حروف المعجم، وكان في ثلاثة أسفارٍ ضخمة، إلى غير ذلك، مما يؤكد أن عملية تنظيمٍ أشعار الدواوين على القوافي كان معمولاً بها في الأندلس قبل إخراج هذا العمل بزمن(١٦).

وقد دأب ابن ملكون في «إيضاح المنهج» على استفتاح قافية كل باب بإيراد بيتٍ أو أكثر من أبيات (التنبيه)، ثم ينتقل من ذلك إلى اسم الشاعر الحماسي، إن كان قد ذكر في (المبهج)، فيكتفي بقول ابن جني فيه أو يزيد عليه ما بدا له متممًا لشرحه، من ذلك مثلاً زيادته في تبيان أصل اشتقاق «قيس» من «قيس بن الخطيم»، قال: «يقال: قَاسَ الشيء يَقُوسُه قَوْسًا، وقَاسَهُ يَقيسُه قَيْسًا، فيحتمل أن يكون فَيْعلاً منهما جميعًا، ألزم التخفيف كمَيْتٍ ولَيْن. وقَيْسٌ أيضًا اسم الذكر، قال الشاعر يدعو على عوفٍ:

رَمَاكَ اللهُ من قَيْسٍ بِأَفْعَى
إذَا نَامَ العُيُون سَرَت علَيْكا

والقَيْسُ أيضًا الشدة، فيحتمل أن يكون اسم الرجل منقولاً من أحدهما(١٧)».

وقال أيضًا في «مازن» من «سعد بن ناشب المازني»: «قلت: يمكن أن يكون مازن منقولاً من صفة المزون، الذي هو الذهاب في الأرض، يقال: مَزَنَ في الأرض يمْزُنُ مُزُونًا، فهو مازن؛ إذا ذهب على وجهه، كما يقال: مَطَرَ وعَرَقَ؛ إذا ذهب على وجهه»(١٨).

وكذلك كان شأنه في تتميم تفسير أسماء عددٍ من شعراء الحماسة، يقول مثلاً في «أُنَيْف»، بعد إيراد كلام ابن جني في (المبهج): «قلت: الأَنِفُ: الغضوب، والأَنِفُ: المستأنف. ويجوز بعد أن يكون تصغير أَنْفٍ من قولك: أَنَفْتُهُ أَنْفًا؛ إذا أصبت أنفه، وتصغير أنف من قولك: أَنِفْتُ من الشيء أنفًا؛ إذا غضبت منه، فيكون تحقيره بعد التسمية: لأن كل واحدٍ منهما مصدر»(١٩). والأمثلة في (إيضاح المنهج) كثيرة يضيق عنها هذا الموضع تحاشيًا للإطالة، وتحاميًا للملالة.

ونجد ابن ملكون يذهب أحيانًا إلى تفسير ما أغفله ابن جني من أسماء بعض شعراء الحماسة، كما هو الشأن في شرح «وعلة» من «غسان بن وعلة»، يقول: «وكذلك وعلة منقولٌ من الوعلة، الذي هو الموضع الممتنع من الجبل، ذكره الدريدي. وتسميتهم به نحو من تسميتهم بمعقل وجبل ومنيع»(٢٠).

وقال أيضًا في «خالد بن نضلة الأسدي»: «قلت: لم يذكر أبو الفتح خالدًا ولا نضلة، وأقول: إن خالدًا منقولٌ من الصفة كقاسم وحارث. والخلود يكون البقاء ويكون الميل، وفي فعل الميل لغتان: فَعَلَ وأَفْعَلَ، يقال: أَخْلَدَ إلى الأرض، وخَلَدَ، وفي القرآن ﴿أَخْلَدَ إلى الأَرْضِ﴾، وفي فعل البقاء مؤنثًا قال:

أَخَالِدَ قَدْ عَلقتك بعد هندٍ
فشَيَّبَنِي الخَوَالِدُ والهُنُودُ

وخُلَيْدَةُ من أسماء النساء، كأنه تصغير ترخيم.

وأما نضلة: فمنقولٌ من واحدة النضل، وهو

الغلبة في النضال، وهي المراماة، يقال: نَاضَلَنِي فنَاضَلْتُهُ نَضْلاً، قال:

قَدْ نَاضَلُوكَ فأَبْدَوا مِنْ كِنَانَتِهِمْ
مَجْدًا تَلِيدًا ونَبْلاً غَيْرَ أَنْكَاس(٢١)

ومع كثرة شعراء الحماسة ممن ذكرهم ابن جني، أو لم يذكرهم، يبدو ابن ملكون حريصًا على الالتزام بما تعهد به في المقدمة من الاكتفاء بما يتقدم من قول ابن جني في اسم الشاعر، أو قوله عن إعادته إذا تكرر. فمن ذلك أنه حينما أورد بيت كلثوم بن صعب قال: «قد تقدم في باب الحماسة قول أبي الفتح في كلثوم في (هـ)»(٢٢). ومن ذلك أيضًا قوله: «قد تقدم قولنا في الدمينة في أول هذا الكتاب»(٢٣). وقال بعد ذكر بيت حجر بن حجية العبسي: «قد تقدم القول في هذه الأسماء متفرقة»(٢٤).

هنات في المنهج

غير أن أبا علي الشلوبين – وهو المترصد لأستاذه – قد كشف عن تكرار ما شرحه ابن ملكون نفسه، أو فسره ابن جني من أسماء كثيرٍ من شعراء الحماسة، قال الشلوبين منبهًا إلى ما وقع فيه أستاذه من خطأ منهجيّ: «كان تقدم كلام الأستاذ في صدر كتابه أنه يستغني بما تقدم من كلامه أو كلام أبي الفتح في اسم الشاعر عن تكراره، وقد قدم الكلام على السنبسي في قافية الدال، فكان حقه ألا يذكره هنا»(٢٥).

والتنبيه نفسه على ما وقع فيه ابن ملكون من تكرار نجده في كل أبواب الكتاب، فيكون بذلك قد أخلّ بما قصد إليه في مقدمته، واشترطه على نفسه في خطبته.

وقد نجده أحيانًا يقدّم كلامه في اسم الشاعر على كلام ابن جني الوارد في (المبهج)، من ذلك قوله في حَبْنَاء: «قلت: حبناء صفة منقولة، يقال: حَبِنَ الرجل والمرأة: إذا أصابهما السَقْيُ، فالرجل أحْبَن، والمرأة حَبْنَاء. وقال أبو الفتح: الحَبَنُ: ورمٌ في أسفل السُّرَّةِ، وقد حُبِنَ فهو محبون، وأنشد:

وكانت من نِتاجِ شُيَيْخِ سُوءٍ
مِنَ الأَكْوَادِ أَحْبَنَ ذي سُعَالِ(٢٦)

بل إنه لم يذكر كلام ابن جني في بعض الأسماء كما هو الأمر في «عُتِيِّ بن مالك العُقَيْلي»(٢٧)، و«سَوَّار بن مضرب السعدي»(٢٨)، و«القُلاخ»(٢٩)، فأوهم القارىء أن ابن جني لم يفسر هذه الأسماء ألبتة في (المبهج)، ومن شرطه في المقدمة أن يبدأ بقول ابن جني في اسم الشاعر، ثم يذكر ما ظهر له فيه أنه قد أغفله.

والعجب من أبي علي الشلوبين – وهو المترصد لأخطاء ابن ملكون – أنه لم ينبه إلى غفلة أستاذه، وكأنه لم يطلع على كتاب (المبهج).

أما تعقيبه على ابن جني بالتتميم، أو التبيين، أو الاعتراض على المسائل النحوية، فجليٌّ واضح من أول الكتاب إلى آخره، وذلك ما يمكن أن تخصّص له دراسة منفردة؛ لأن القول فيه كثير.

أما العلامة التي تؤذن برجوعه إلى كلام ابن جني بعد فراغه من التعقيب وهي «رجع»، فقد وضعها في كثيرٍ من الأحيان في غير موضعها، وقد بيّن الشلوبين ذلك في غير موطن من هذا الكتاب.

وصفوة القول أن ابن ملكون قد التزم أحيانًا بما عقد عليه العزم في مقدمته، غير أنه في أحايينَ أخرى قد خلط فغلط، وغفل فخطل. وليس هذا قصورًا منه، بل إنه فيض عالمٍ ذي ثقافة موسوعية، وعلم جمّ غزير لم يستطع معه قلمه أن ينقاد إلى ما أراد، فاعترى منهجه هَنات يمكن لأي عالمٍ أن يسقط في مثيلاتها مهما بلغ قدره، وعلا شأنه. ■

الحواشي

١ – هو إبراهيم بن محمد بن منذر بن أحمد ابن سعيد بن ملكون – بضم الميم – الحضرمي الإشبيلي، يكنى أبا إسحاق، ويعرف بابن ملكون. سمع من أبي مروان الباجي، وشريح بن محمد، وعباد بن سرحان، وأجاز له القاسم بن بقي، وأبو الحسن بن مغيث، وأبو بكر بن فندلة. وأخذ عنه جماعةٌ من الجلة كالشلوبين، وابن خروف، ومحمد بن طلحة، وابنا حوط الله، وغيرهم. كان رئيسًا في علم العربية، ماهرًا في صناعتها وإقرائها. ولد سنة ٤٩٦هـ تقريبًا، وتوفي سنة ٥٨٠هـ، وقيل ٥٨١هـ، وقيل ٥٨٤هـ.

ترجم له في: التكملة ١/١٣٥ رقم ٦٠٤، وإنباه الرواة ٤/١٩٦ رقم ٩٧٦، وبغية الوعاة ١/٤٣١ رقم ٨٧٢، ومعجم المؤلفين ١/١٨٠، والأعلام١/٦٢.

٢ – توجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط رقم ٢٣ مصورة عن نسخة الزاوية الحمزاوية، ونسخة أخرى بمكتبة الأسكوريال رقم ٣١٢.

٣ – إيضاح المنهج: ٢.

٤ – المصدر نفسه: ٢.

٥ – المصدر نفسه: ٢.

٦ – المصدر نفسه: ٢.

٧ – المصدر نفسه: ٢.

٨ – المصدر نفسه: ٢.

٩ – المصدر نفسه: ٢.

١٠ – المصدر نفسه: ٢.

١١ – المصدر نفسه: ٢.

١٢ – المصدر نفسه: ٢.

١٣ – من الشعراء الذين ورد اسمهم في «باب الكبر» ولم يفسرهم في (المبهج): عامر ابن جوين، والمستوغر بن ربيعة.

١٤ – شرح الحماسة للأعلم: ١/٩٧.

١٥ – المصدر نفسه: ١/٩٣.

١٦ – المصدر نفسه: ١/ ٦٠ – ٦١.

١٧ – إيضاح المنهج: ١٣.

١٨ – المصدر نفسه: ١٧.

١٩ – المصدر نفسه: ٨٢.

٢٠ – المصدر نفسه: ٥٥.

٢١ – المصدر نفسه: ٢١٣.

٢٢ – المصدر نفسه: ٢٤٠.

٢٣ – المصدر نفسه: ٢٤٥.

٢٤ – المصدر نفسه: ٢٩٢.

٢٥ – المصدر نفسه: ٧٩.

٢٦ – المصدر نفسه: ٧١.

٢٧ – المصدر نفسه: ١٩٣.

٢٨ – المصدر نفسه: ٧٠.

٢٩ – المصدر نفسه: ١٩٣.

مصادر الدراسة

ابن الأبار.

– التكملة لكتاب الصلة، تح. عبد السلام الهراس، دار المعرفة، الدار البيضاء، المغرب.

الأعلم الشنتمري.

– شرح حماسة أبي تمام، تح. علي المفضل حمودان، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

ابن جني.

– المبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة، تح. مروان العطية، وشيخ الراشد، ط١، دار الهجرة، بيروت، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

الزركلي.

– الأعلام، الطبعة العاشرة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٦م.

السيوطي.

– بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الفكر، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

القفطي.

– إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

كحالة : رضا.

– معجم المؤلفين، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن ملكون : الحضرمي.

– إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج.